الدرس السابــع/ أدب الثــورة (مفدى زكريـا):

بعد المأساة الرهيبة(8 ماي1945) حدث تحولاً ملحوظًا في الحركة الوطنية، فازداد الوعي الثوري والالتفاف حول القضايا الوطنية على رأسها استقلال الجزائر، حينها كان الشعر خير مبشر بالثورة. ونلمس ذلك من خلال القصائد ذات المضامين السياسية الداعية إلى الثورة لانتزاع الاستقلال والحرية بقوة السلاح. فقد كان الشاعر يدرك أنّ شيئا عظيمًا سيحدث وقد حدث فعلا، وتجسد في اندلاع الثورة التحريرية(أول نوفمبر 1954) فواكبها وارتبط بها كل الارتباط بصدق وإخلاص ووفاء. قامت الثورة التحريرية معلنة ميلاد الإنسان الجزائري الجديد، وفاتحة صفحة جديدة من النضال الجزائري، إنّها النّهاية المؤكدة للاستعمار الفرنسي،وأصبح اسم(**نوفمبر**) مرادفًا لاسم(**الجزائر**)، والواقع أن(نوفمبر) ليس مناسبة تؤرخ باليوم والسنة، إنّه معنى أعظم وأجل إنّه يحوي كل القيم والمعاني السامية التي تمخضت عن تلك اللحظة التاريخية، بل إنّها عند الشاعر(**مفدى زكريا**) لا تقل عظمة وجلالاً عن(ليلة القدر) التي نزل فيها القرآن الكريم فيصلاً بين الحق والباطل، وفي هذا يقول:

وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلــة القدر الجوابـــا

تبـــارك ليلك الميمــون نجمًا وجلّ جلالــه هتك الحجابـــا

زكّت وثباته عـــن ألف شهر قضاها الشعب يلتحق السرابا

وهـزّت ثـــورة التحرير شعبًا فهبَّ الشعب ينصبُّ انصبابـا

وسر تقديس الشعراء لـ(نوفمبر) يكمن في المعاني الثورية التي تصيب الإنسان بالانبهار والذهول، كلما ذكر اسم(نوفمبر)، إنّ سرّ التقديس يكمن في هذه الليلة، وهذه الدقيقة الخالدة التي اختارها (القدر) لتكون ميلادًا جديدًا لهذه الثورة العملاقة التي تقلبت في رحم الزمان طويلا، ومن ثم فإنّ الشاعر(**صالح خرفي**) يحاول أن يعلل تقديسه لـ(نوفمبر) ولكن السرّ يبقى فوق تفسير الكلمات، لأنّه أجلّ من ذلك وأعظم:

بايعت من بين الشهور(نوفمبر) ورفعت منه لصوت الشعب منبـرا

قدّست فيك النّـــار تلتهم الدجى فتحيـــل ظلمتــه لهيــبًا أحمـــرا

قدّست فيـــك الدّمع جفّ بمقلة أغفت لتكتــحل الصبـــاح المسفـرا

قدّست فيــك الموت مفتخرا بمن يعلـــو المقاصل كـــي يتيه ويفخـرا

وقد هلل الشعراء لهذا اليوم المشهود الذي كان حلم كل شاعر ومواطن، يقول: أبو القاسم سعد الله :

كان حلمًا واختمارا

كان شوقًا في الصدور

أن ترى الأرض تثور

كان حلمًا، كان شوقًا، كان لحنًا

غير أنّ الأرض ثارت

والهتافات تعالت

من رصاص الثائرين

❖شـــاعــر الــثــورة : مــفــدي زكــريـــا

أولا / حيــاتـــه وثـقــافــتـــــــــــه:

اسمه الحقيقي(زكريا بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان) وعن جده هذا ورثت العائلة لقب آل الشيخ، ففي حضن هذه العائلة ولد(**زكريا**) سنة(1908م) . وفي مسقط رأسه(بني يزقن) بغرداية، بدأ خطواته العملية الأولى، حيث حفظ جزءا من القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية والفقه، وعندما بلغ(السابعة) من عمره صحبه والده معه إلى مدينة(**عنابة**) حيث كانت تجارته، وفيها أتمّ حفظ القرآن وفي(سنة1922) ارتأى(والده) أن يبعث بابنه إلى(تونس)، حيث التحق بمدرسة(**السلام القرآنية**)، ثم انتقل إلى(**الخلدونية**)، وبعدها تحول إلى(**جامع الزيتونة**) وبه جلس إلى أساتذة كبار ذوي مشارب ثقافية وفكرية مختلفة ومتعددة. وهكذا تضافرت آثار كل من البيئة الضيقة التي كان يحيا فيها (مفدى زكريا) وهي(بني يزقن) بمدينة غرداية، والبيئة الواسعة المتمثلة في النشاط السياسي الوطني الذي كانت تعيشه(تونس) آنذاك في توجيه(مفدى) وجهة وطنية صحيحة، وجعلته ينظر إلى مستقبل الجزائر والوطن العربي من خلال سبيل واحد، هو التحرر الكامل من الاستعمار. فلا قيمة لأي تطور أو تحسن في الحياة ما لَمْ يحصل التحرر النهائي. وهذا الموقف التحرري الذي يستهدف التخلص من نير الاستعمار قبل كل شيء، هو الضوء الذي يمكن أن يفسر جميع مواقف(مفدى زكريا) طوال حياته، هو

الذي جعل من(مفدى زكريا) صوتًا منفردا بين أصوات الشعراء الجزائريين وجعله في الوقت نفسه عرضة للآلام والمعاناة والملاحقة والسجن في العديد من المرات عبر سيرته.

- اندلعت الثورة التحريرية الكبرى(غرة نوفمبر 1954) فالتحق بصفوفها مناضلا، وواكبها بشعره وسجل بطولاتها ووقائعها، ولم يطل به الأمر حتى ألقي عليه القبض(سنة1956)، فتنقل بين سجن (البرواقية) وسجن(برباروس) وفي(سنة 1959) أفرج عن (مفدي) ففر إلى المغرب ومنه إلى تونس. وبتاريخ(**17أوت 1977**)، انتقل الشاعر إلى رحمة الله إثر سكتة قلبية، ونقل جثمانه إلى أرض الوطن(الجزائر)، وبالتحديد إلى مسقط رأسه بـ(**ميزاب**) بمدينة غرداية، يغطيه العلم الجزائري الذي كتب الشاعر نشيده بدمه، ليرقد آمنا مطمئنا في الأرض التي قضى حياته وهو يهتف بها وينادي بعزتها وكرامتها، وتاريخها وعروبتها، وإسلامها وسيادتها وحريتها الكاملة .

ثانيــا/ رحـلة(مفـدي زكريـا) مـع الثـورة التحـريـريـــــــــة:

يظل الحب هو الدافع الذي يرتمي الشعراء من أجله في براكين الثورات، شاهدين عليها بشعرهم ومشاركين فيها بأنفسهم حتى تحفل بهم الزنزانات وتمتلئ بهم السجون غير آبهين بما تفعله أيدي الظالمين، الاستبداديين.. ومن الثورات التي قلبت المفاهيم ثورة الفاتح من(نوفمبر 1954)، وهذه الثورة تعد منعطفًا تاريخيًا في السياسة الجزائرية وموقفها من الأساليب الاستعمارية، والوعود الكاذبة التي كانت تضربها فرنسا الاستعمارية للشعب الجزائري. وهذه الثورة غيرت مجريات الأحداث، كما أنها لم تأت صدفة وإنّما امتدت جذورها إلى مقاومة (الأمير عبد القادر).. وتصديقًا لأثر ثورة (نوفمبر) ارتمى الشعب الجزائري في أحضانها بكل ما لديه، بالنفس والنفيس في سبيل أن تحيا الجزائر حرة مستقلة سيدة.. وعن قيمة هذه الثورة وعن أثرها الذي تركته يقول مفدي:

دعــــــا التاريخ ليلك فاستجابا (نوفمبر) هل وفيت لـنــا الخطابا؟
وهل سمع المجيب نداء شعب فكـــــانت ليلة القـــدر الجوابــا؟
تبــــــارك ليلك الميمون نجمًا وجــلّ جــــــلاله هتك الحجابـا
زكت وثباته عـــــن ألـف شهر قضـــــاها الشعب يلتحق السرابـا
تجـلى ضاحك القسمات تحكى كــــــواكبه قنابــــله لــــــهابـا

ولما كان(لليلة الفاتح نوفمبر) من تغيير في حياة الشعب الجزائري، وفاصل بين الحق والظلم، قارنها (بليلة القدر) القرآنية التي كانت منعطفًا في حياة البشرية في إخراجها من الظلمات إلى النّور.. وإذا عدنا إلى حياة(**مفدي**) نجد أنّ الحس الثوري هو المحور الأساسي في حياته النضالية والشعرية. ولذا انبهر بهذا الانفجار الثوري الذي ناضل من أجله ما يفوق ربع قرن (1926- 1954) ، وذاق مرارة السجون والتعذيب مرارا وتكرارا من أجل ذلك، ولذلك لا نستغرب مبالغته، ولا تعد تجاوزا للمقدس الديني من الوجهة النقدية الأدبية، وهو معروف بتدينه وورعه، وحفظه للقرآن الكريم.

كما نجده يحدد المعجزات التي صنعتها الثورة التحريرية، حيث تمكن الجزائريون من إرغام الدهر وإذلال كبريائه، وتحطيم غروره، وإخضاعه لإرادتهم، ولقد خاضوا صروف الزمان وروضوا أحداثه وصنعوا الذي وعدوا به أنفسهم، يقول:

مددنا خيوط الفجر، قم نصنع الفجرا وصغنا كتاب البعث، قـم ننشر السفـرا

وغصنا بصدر الغيب نجلو ضميره ونـقرأ عـدل السمـاء بـه سطـرا

ودسنا غرور الدهر في كبريائـه فصعّر خـدًّا، وانحنى يطلب العـذرا؟

وخضنا تصاريف الزمان نروضها ونصدع ـ بالإعجاز ـ أحداثها السكـرى

ورعنا الليـالي الجليـات أجهـضت ولم نـك نخشـى من عـجـائبـها شـرا

ثم ينتقل إلى التنويه بالجانب الإسلامي من هذه الثورة، كونها ثورة مباركة مقدسة مرتبطة بالإرادة الإلهية، وكأنّ الدعوة للمشاركة فيها هي دعوة(**اللـه**)عزّ وجلّ وتدبير منه ونفحة من قدره، لذلك عدّ الانخراط فيها من الجهاد وتلبية لرغبة اللـه :

تبـاركـت شهرا بالخوارق طـافحـًا وسبحان مـن بالشعب في ليله أسـرى

فكم كنْتُ يا رحمن في الشك غارقًا فآمنتُ بـالرحمن فـي الثورة الكبـرى

وكم كنت بين(الكاف والنون) حائرا و مذْ قلت ـ يـا رب ـ جنبتنـي الكفـرا

ولبّـاك شعب كـاد يفقـد ظنّه بـوعدك لـوْ لا أنّـه يحفظ الـذكـرى

ويقرأ فـي التنـزيل بعد صلاتـه بـأنّك بـعـد الـعسـر تغمره يـسـرا

ولقنتـه أنّ الجـــهاد عـــقيـــدة طـوي الأزل العـلوي فــي صدرها سـرا

وفــي ساحـــة التحرير سوق قوامها ضمـــائر قـــوم لا تـــباع ولا تشتـــرى

وإذا كانت فرنسا الاستعمارية قد ركزت على مناطق بعينها لأمر يهمها، فهذا لم يمنع من أن تكون الثورة في كل شبر من أرض الجزائر، ولم يفت(**مفدى زكريا**) أن يسجل ذلك التضامن والموقف الموحد الذي كان يقفه الشعب الجزائري من فرنسا، ليبين أنّ الثورة لم تكن مقتصرة على منطقة دون أخرى وإنّما نيرانها عمت ربوع كل البلاد. والحق أنّ الثورة اشتد لهيبها في كل شبر من الجزائر وتلظى سعيرها كل جزائري عاش الثورة، يقول مفدي:

هذه الجبـــال الشاهقـــات شواهـــد سخـــرت بمن مسخ الحقائق وادعـــا

سـل (جرجرة) تنبئك عـن غضباتها واستفـت(شليا) لحظـة و(شلعلـعا)

واخشـع بـ(وارشنـيس) أنّ تـــرابـــها مـا انفك للجـنـد المعطـر مصرعـــا

كســـرت(تلمسان) الضـــليعة ضلعه وهــي بـــ(صـــبرة) صبـره فتـــوزعـــا

ودعـــاه (مسعود) فـــأدبـــر، عندمـــا لاقـــاه (طـارق) سـافـرا ومـقـنعـــا

هكذا تكون الثورة الجزائرية في نظر(مفدي زكريا) ثورة قوية بقوة إيمان أصحابها، ثورة إنسانية حضارية تفتح أمام الشعوب المظلومة أبواب النور لتقتدي بها وتحرر نفسها من ربقة الظلم والاستعمار والاضطهاد والاستبداد.. فصورة الثورة الجزائرية بملاحمها البارزة، وحتى جزئياتها الدقيقة كلها ترتسم في شعره واضحة جلية، والكثير يرى أن **(من لا يعرف مفدي زكريا لا يعرف عن الثورة شيئا..)**.

ثـالثـــا/ الخصـــــائص العامـــة لشـــعر مفـــــدي:

1) شعر أصيل، بأصالة شخصية مفدى زكريا.
2) شعر نابع من تجربة شعورية صادقة ومعاناة واقعية قاسية.
3) مستمد من التراث الإسلامي في ـ الغالب ـ مشبع بقيمه ومثله، متأثرا بعظمائه وتاريخه.
4) بارع في الاقتباس والتضمين، سواء للألفاظ أو الأحداث من القرآن الكريم أو من التاريخ...
5) تقليدي الشكل محافظًا مجددا في المضمون، وبهذا يكون قد اهتم بوظيفة الشعر على حساب ماهية الشعر، أماالتجدد في شكل القصيدة، ضئيل جدًّا مقارنة بالتقليد.